فالعدالة ينبغي لها أن تكون مطبقة دائماً ، وليس للكراهيـة والغضب في الله تعـالى أن يقفـا حاجزاً دون تحقيق مبادئ العدالة يومـاً مـا . وفي ذلـك يقول الله تعـالى : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ على ألاّ تَعْدِلُوا ، اعدِلُوا هُوَ أقْرَبُ للتَّقْوَى ﴾ [المائدة ٨/٥] .

إنما المقصود أن تعلم أن المسلمين دون غيرهم أمة واحدة ، كما نصّت على ذلك الوثيقة التي شرحناها فيما مضى . وإذا كان كـذلـك ، فـإن ولاءهم وتـآخيهم ينبغي أن يكونـا محصورين فيما بينهم . أما معاملتهم فينبغي أن تكون قائمة مع الناس كلهم على أسـاس دقيق من العـدل ورغبة الخير للجميع والدعاء للناس جميعاً بالصلاح والرشد .

غزوة أُحد

سببهـا أن بقيـة من زعمـاء قريش ممن لم يقتلوا في غزوة بـدر ، اجتمـع رأيهم على الثأر لقتلاهم في بـدر ، وأن يستعينوا بعير أبي سفيـان ومـا فيهـا من أمـوال لتجهيز جيش قـوي لقتـال رسـول الله ﷺ . فـاجتمعت كلمـة قريش على ذلـك ، وانضمّ إليهم غيرهم أيضـاً ممن يسمّـون بـالأحـابيش ، واستعانوا بعدد كبير من النسوة كي يمنعن الرجال من الفرار إذا أحـدق بهم المسلمون . وخرجوا من مكة وقد بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل .

وسمع رسول الله ﷺ بـالخبر فـاستشـار أصحـابـه وخيَّرهم بين الخروج لملاقاتهم وقتالهم ، والبقاء في المـدينـة ، فـإن دخلوا عليهم فيهـا قـاتلوهم ، فكان رأي بعض شيـوخ من المسلمين عـدم الخروج من المـدينـة ، وكان عبـد الله بن أبي بن سلـول من أصحـاب هـذا الرأي ، غير أن كثيراً من الصحابة ممن لم يكن لهم شرف القتال في بـدر رغبوا في الخروج ، وقـالوا : « يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا » ..

ولم يزل أصحاب هذا الرأي برسول الله ﷺ حتى وافقهم على ماأرادوا ، فدخل بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه وظن الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد . فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته (أي درعه) أن يضعها حتى يقاتل »[17] .

● ثم إن النّبي ﷺ خرج من المدينة في ألف من أصحابه ، وذلك يوم السبت لسبع ليال خلون من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من هجرته عليه الصلاة والسلام[18] ، حتى إذا كانوا بين المدينة وأُحد انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الجيش ـ وعامتهم من شيعته وأصحابه ـ وكرّ راجعاً بهم وهو يقول : « عصاني وأطاع الولدان ومن لا رأي له ، وما ندري علام نقتل أنفسنا ؟ » .

وتبعهم عبد الله بن حرام يناشدهم الله أن لا يخذلوا نبيهم ، فلم يستجيبوا لندائه ، وقال زعيمهم : « لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم » . وروى البخاري رضي الله عنه أن المسلمين اختلفوا في أمر هؤلاء الذين انخذلوا عن المسلمين ، ففرقة منهم تقول نقاتلهم ، وأخرى تقول دعوهم ، فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ؟

---

(١٧) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ، وروى الطبري قريباً منه ، وانظر سيرة ابن هشام : ٦٢/٢ ، وتاريخ الطبري : ٥٠٠/٢ ، وترتيب مسند الإمام أحمد : ٥٢/٢٢

(١٨) طبقات ابن سعد : ٨٧/٣ ، وسيرة ابن هشام : ٦٢/٢

أتُرِيـدُونَ أنْ تَهْـدُوا مَنْ أضَـلَّ اللهُ ﴾[١٩] [النسـاء ٨٨/٤] . واقترح بعض الصحابة الاستعانة باليهود ، بنـاء على مـا بينهم من ميثـاق التنـاصر فقـال رسول الله ﷺ : « لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك »[٢٠] .

وعسكر النّبي ﷺ وأصحابه ـ وهم لا يزيدون على سبع مئـة مقـاتل ـ في الشعب من أُحـد ، فجعل ظهور المسلمين إلى أُحـد واستقبلوا المـدينـة ، وجعل على الجبـل خلف المسلمين خمسين راميـاً ، وأمّر عليهم عبـد الله بن جبير وأوعز إليهم قائلاً : « قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنـا ، فـإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »[٢١] .

وألـحّ كل من رافـع بن خـديـج وسمرة بن جنـدب أن يشتركا مـع النّبي ﷺ في القتـال ، وهمـا ابنـا خمس عشرة سنـة ، فردّهمـا النّبي ﷺ لصغر سِنّهما ، فقيل له : « يـا رسول الله إن رافعـاً رام ، فـأجـازه ، فجـاء سمرة بن جندب يقول : فأنا والله أصرع رافعاً ، فأجازه هو أيضاً » .

● وأمسك النّبي ﷺ بسيف فقال : « من يأخذ هـذا السيف بحقـه ؟ فأقبل أبو دجانة قائلاً : أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فأخرج أبو دجانة عصابة حمراء فعصب بها رأسـه (وكان ذلـك شـأنـه عنـدمـا كان يريـد أن يقـاتـل حتى المـوت) ، ثم راح يتبختر بين الصفـوف . فقـال رسول الله ﷺ : إنها لمشية يبغضهـا الله إلا في مثل هـذا الموطن »[٢٢] . ثم

---

(١٩) صحيح البخاري : ٣١/٥

(٢٠) طبقات ابن سعد : ٨٠/٣ ، وروى ابن إسحاق نحوه : ٦٥/٢

(٢١) ابن سعد : ٨٠/٣ ، وابن هشام بألفاظ قريبة من هذه . وروى نحوه البخاري : ٢٩/٥

(٢٢) ابن هشام : ٢٣٣/١ . وروى نحوه مسلم عن طريق حماد بن سلمة ، إلا أنـه لم يرد في مسلم : أنهـا لمشية يبغضها الله .. (انظر صحيح مسلم : ١٥/٧) .

أعطى رسول الله ﷺ اللواء لمصعب بن عمير رضي الله عنه . وكان الـذي يقود ميمنة المشركين خالد بن الوليد ، وميسرتهم عكرمة بن أبي جهل .

● فـاقتتل النـاس ، وحميت الحرب ، وراح المسلمون يحسون المشركين في اندفـاع مـذهل ، وكان في مقـدمـة المبـارزين والمقـاتلين أبو دجـانـة ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير .

وقُتل مصعب بن عمير دون الرسول ﷺ فأخـذ اللواء علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه ، ومـا هـو إلا أن أنـزل الله نصره على المسلمين ، فـانكشف المشركون منهزمين لا يلـوون على شيء ونسـاؤهم يـدعـون بـالـويـل . وتبعهم المسلمون يقتلون ويغنمون . فتكلم الرمـاة الـذين كانـوا على الجبـل في النزول ، واختلفوا فيما بينهم ، فنزل كثير منهم ظنّاً منهم بأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وراحوا يـأخـذون مع أصحـابهم الغنـائم ، وثبت رئيسهم عبـد الله بن جبير مع عدد يسير قائلاً : لا أجـاوز أمر رسول الله ﷺ . ونظر خـالـد بن الوليـد إلى خلاء الجبل وقلّة أهلـه ، فكرّ راجعـاً بـالخيل وتبعـه عكرمـة ، فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم وأميرهم ، وأخذوا يهجمون على المسلمين من الخلف[٢٣] .

● وحينئـــذٍ انكشف المسلمـــون وداخلهم الرعب ، وأخـــذ المسلمـــون يقتتلـون على غير شعـار أو هـدى ، وأوجـع المشركـون في المسلمين قتـــالاً ذريعاً ، حتى خلص إلى رسول الله ﷺ فرُمي بالحجارة حتى رمي لشقه ، وأصيبت رباعيته (السّن المجاورة للنّـاب) وشجّ في وجهـه ، وجعل الـدم يسيل على وجهـه فيمسحـه وهو يقول : « كيف يفلح قـوم خضبـوا وجـه

---

(٢٣) طبقات ابن سعد : ٨٣/٣ . ورواه البخاري عن البراء في كتاب الجهاد : ٢٨/٥

نبيّهم وهو يدعوهم إلى ربّهم ؟ » ، وجاءت فاطمة رضي الله عنها تغسل عنه الدم وعليّ يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ثم ألصقته بالجرح فاستمسك[٢٤] .

● وأثناء ذلك شاع في الناس أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وكانت هذه الشائعة من أشدّ ماأدخل الرعب في قلوب بعض المسلمين ، وهي التي جعلت ضعاف الإيمان يقولون : « فما مقامنا هنا إذا كان قد قتل الرسول ؟ » ، وذهبوا يولون الأدبار ، وهي التي جعلت أنس بن النضر يقول : « بل مافائدة حياتكم بعد رسول الله ﷺ ، ثم أشار إلى بعض المنافقين وإلى ضعاف الإيمان قائلاً : اللهم إني أبرأ إليك مما يقول هؤلاء ، وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وانطلق فشدّ بسيفه على المشركين حتى قتل »[٢٥] .

● وتجلّى في هذه الأثناء مظهر رائع للتضحية والفداء ممن كانوا حول رسول الله ﷺ من الصحابة فراحوا يقدمون أرواحهم رخيصة دون رسول الله ﷺ حتى قتل معظمهم .

روى البخاري أنه لما كان يوم أُحد ، انهزم الناس عن النّبي ﷺ ، وأبو طلحة بين يدي النّبي ﷺ مجوّب عليه (مترّس بنفسه عليه) بجحفة له (ترس من جلد) ، وكان أبو طلحة رجلاً رامياً شديد النزع . يشرف

---

(٢٤) متفق عليه بألفاظ متقاربة .
(٢٥) متفق عليه .

النّبي ﷺ ينظر إلى القــوم ، فيقــول أبــو طلحــة : « بــأبي أنت وأمي لاتشرف ، يصيبك سهم من سهام القوم ، نحري دون نحرك »[٢٦] .

وترّس أبو دجانــة نفســه دون رسول الله ﷺ ، والنّبــل يتــلاحــق في ظهره وهو منحنٍ على رسول الله ﷺ لا يتحول . وترّس زيــاد بن السكن نفسه دون رسول الله ﷺ حتى قتل هو وخمسة من أصحابه ، وكان آخرهم على مــا رواه ابن هشــام عمــارة بن يــزيــد بن السكن ، فقــاتــل دونــه عليه الصلاة والسلام حتى أثبتته الجراح ، فقــال رسول الله ﷺ : « أدنوه مني ، فوسّده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ » .

● ثم إن الحرب هدأت بين الطرفين وانحسر المشركون منصرفين ، وقــد زُهوا بــالنصر الــذي أحرزوه ، وفزع النــاس لقتلاهم ، وكان فيهم حمزة بن عبــد المطلب ، واليمان ، وأنس بن النضر ، ومصعب بن عمير وعــدد كبير غيرهم ، وقــد تــأثر النّبي ﷺ لمقتل عمــه تــأثراً كبيراً ، وقــد مُثِّل بــه فبقر بطنه وجدع أنفه وأذنــاه . وأخــذ النّبي ﷺ يجمع بين الرجلين من القتلى في ثوب واحد ثم يقول : « أيُّهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ » ، فــإذا أُشير لــه إلى أحدهما قدّمه في اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامــة . وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصلّ عليهم ولم يُغسلوا »[٢٧] .

● وأخــذ اليهــود والمنــافقــون يظهرون الشماتــة بــالمسلمين ، وراح عبــد الله بن أبي بن سلول يقول هو وأصحــابــه للمسلمين : « لــوأطعتمــونــا

---

(٢٦) البخاري : ٣٣/٥

(٢٧) البخاري : ٤٩/٥

ماقتل منكم من قتل » ، وأخذوا يتساءلون عن النصر الذي كانوا يتوهمونه مع رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى آيات من سورة آل عمران تعليقاً على إرجاف اليهود والمنافقين وبياناً لحكمة ماحصل في غزوة أُحد ، وهي تبدأ بقوله تعالى : ﴿ وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ تُبَوِّءُ المؤمنينَ مقاعدَ للقتالِ واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قالوا لإخوانِهِمْ وَقَعَدُوا لوأطاعُونا ماقُتِلُوا ، قُلْ فادْرَؤوا عَنْ أنْفُسِكُمُ الموتَ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٩/٣ ـ ١٦٨] .

● وانصرف رسول الله ﷺ من أحد مساء السبت ، فبات تلك الليلة في المدينة هو وأصحابه ، وبات المسلمون يداوون جراحاتهم . فلما صلى رسول الله ﷺ الصبح يوم الأحد ، أمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب العدو ، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس .. ودعا رسول الله ﷺ بلوائه وهو معقود لم يحل ، فدفعه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وخرج القوم وهم مابين مجروح وموهون ، ومشجوج حتى عسكروا بحمراء الأسد (مكان من المدينة على بعد عشرة أميال) فأوقد المسلمون هناك نيراناً عظيمة ، حتى تُرى من المكان البعيد وتوهم كثرة أصحابها .

● ومرّ بهم معبد الخزاعي (وكان يومئذٍ من مشركي خزاعة) ثم تجاوزهم فمرّ على المشركين ولهم زجل ومرح وزهو بالنصر الذي لاقوه في أُحد ، وهم يأتمرون بالرجوع إلى المدينة للقضاء على المسلمين ، وصفوان بن أمية ينهاهم . فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : « ماوراءك يامعبد ؟

فقال : ويحكم ! إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرُّقاً ، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط ؟ » .. فأدخل الله بذلك رعباً عظيماً في قلوب المشركين ، وهبّوا مسرعين عائدين إلى مكة . وأقام النّبي ﷺ في حمراء الأسد : الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة »[٢٨] .

العبر والعظات :

تنطوي غزوة أُحد على دروس بالغة الأهمية للمسلمين في كل عصر ، ولكأن الحكمة من وقوعها على الشكل الذي بيّناه ، أن يتكون منها درس تطبيقي عملي ، يعلّم المسلمين كيفية البلوغ إلى النصر في معاركهم مع العدو ، وكيفية التحرز من مزالق الفشل والهزيمة ، فلنقف على هذه الدروس العظيمة ولنتأمل فيها ، الواحدة إثر الأخرى :

أولاً : يتجلى هنا أيضاً المبدأ الذي كان رسول الله ﷺ يأخذ به نفسه ، وهو التزام التشاور مع أصحابه في كل أمر يحتمل المشاورة والبحث . ولكنا نقف هنا على فارق واحد لم نجده في المشاورة التي تمّت قبيل غزوة بدر . فقد لاحظنا أنه عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن يعود عن موافقته لأصحابه الذين اقترحوا الخروج للقاء العدو خارج المدينة ، بعد أن لبس درعه وأخذ أهبته للقتال ، على الرغم من أنهم ندموا وعادوا عن رأيهم ورجوه البقاء إذا كان يرى ذلك . وربما كان النّبي ﷺ يميل - أو يظهر الميل - عند التشاور إلى البقاء في المدينة .

ولعل الحكمة الجلية في هذا ، أن البحث في الأمر بعد أخذ العدة للقتال ، وبعد ظهور النّبي ﷺ في قومه وأصحابه لابساً دروعه آخذاً سلاحه ، شيء خارج عن حدود ما يقتضيه مبدأ التشاور خصوصاً في القضايا الحربية التي تحتاج - مع المشورة - إلى قدر كبير من الحزم والعزم . ثم إن المعنى الذي قد يتولد عن تقاعسه ﷺ عن الخروج بعد أن طلع عليهم مستعداً لذلك ، إنما هو الضعف والاضطراب في الإرادة وهو كثيراً ما يكون نابعاً من الخوف والحذر

(٢٨) طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري .

اللذين لا معنى لهما . ولـذلـك أجـابهم النّبي ﷺ عن كلامهم بعبـارة فيهـا كل الحزم والعزم ، دون أن يلتفت إلى لغـط القوم وتعـاتبهم فيما بينهم ، قـال : « مـا ينبغي لنبيّ لبس لأمتـه أن يضعها حتى يقاتل » .

ثانياً : للمنافقين في هذه الغزوة مشهد بارز .. ولم لا يكون مشهدهم بارزاً فيهـا ، وهي إنما انطوت على حكم ومقاصد ، من أهمهـا تمحيص المؤمنين عن أخلاطهم من المنـافقين ؟ وإن من وراء ذلك لفوائد كبيرة للمسلمين كانت ذخراً لهم فيما بعد .

لقـد رأينـا كيف انخـذل عبـد الله بن أبي بن سلـول بثـلاث مئـة من أتبـاعـه عن رسول الله ﷺ وأصحابه ، بعد خروجهم من المدينة ، وسبب ذلك في ظاهر مـا تـذرع بـه : أنّ النّبي ﷺ إنمـا أخـذ برأي الشبـان الأغرار ، ولم يـأخـذ برأي أمثـالـه من الشيوخ أربـاب الحجى والأحلام . غير أن سبب ذلك في الحقيقة وواقع الأمر ، هو أنه لا يريـد قتـالاً . لأنـه لا يريد أن يعرّض نفسه لمخاوفه ومغبـاتـه .. وتلـك هي أبرز سمات المنـافقين : يريـدون أن يأخذوا ما في الإسلام من مغانم ، ويبتعدوا عما فيه من مغارم وأتعاب !.. وإنما الذي يمسكهم على الإسلام أحد شيئين : غنيمة يتوقعونها ، أو مصائب ومحن يتوقونها .

ثـالثـاً : أن النبي ﷺ لم يشـأ أن يستعين بغير المسلمين في هـذه الغزوة ، على الرغم من قلة عدد المسلمين ، وقال فيما روى ابن سعد في طبقاتـه : « لا نستنصر بـأهل الشرك على أهل الشرك »[٢٩] . وقـد روى مسلم أن النبي ﷺ قـال لرجل تبعـه في يـوم بـدر ليقـاتـل معـه : « أتؤمن بالله ؟ قال : لا ، قال : فارجع فلن أستعين بمشرك » .

وقد ذهب جمهور كبير من العلماء ، بناء على هذا ، إلى أنه لا يجوز الاستعانـة بـالكفـار في القتال ، وفصّل الإمام الشافعي في ذلك ، فقال : « إن رأى الإمـام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به جاز ، وإلا فلا »[٣٠] .

---

(٢٩) قـد يقـال : إن هؤلاء الـذين عرضوا مشـاركتهم مع المسلمين في القتـال يهود من أهل الكتـاب ، فكيف سماهم الرسـول أهـل الشرك . والجـواب : أن إطـلاق الشرك عليهم بمعنى غير المعنى الاصطلاحي الذي يطلق على الوثنيين من العرب وللشرك معنى عام يعتبر قـدراً مشتركاً يصـدق على جميع الكافرين .

(٣٠) انظر مغني المحتاج : ٢٢١/٤

ولعل هذا هو المتفق مع القواعد ومجموع الأدلة ، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام قبل معونة صفوان بن أمية يوم حنين ، والمسألة على ذلك داخلة في إطار ما يسمى بالسياسة الشرعية . وسنذكر الفرق بين مافعله الرسول في حنين وما فعله في كل من بدر وأحد ، في مناسبته إن شاء الله .

رابعاً : ومما يجدر التأمل فيه ، حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما على خمس عشرة سنة ، وكيف جاءا يناشدان رسول الله ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال ، وأي قتال ؟!. قتال قائم على التأهب للموت ، لاتجد فيه أي معنى من التعادل بين الفريقين : المسلمون وعددهم لا يزيد على سبع مئة ، والمشركون وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل .

والعجيب حقاً أن يقف بعض محترفي الغزو الفكري على مثل هذه الظاهرة ، فيذهبوا في تحليلها إلى أن العرب كانوا أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة ، فكانوا ينشؤون في أجوائها وظروفها ، ولذلك كانوا ينظرون إليها (شيباً وشباناً وأطفالاً) نظرة طبيعية لاتسبب لهم قدراً بالغاً من المخاوف .

لا ريب أن أرباب هذا التحليل ، يغمضون أعينهم في إصرار عجيب ، أثناء هذا الكلام عن تخاذل أمثال عبد الله بن أبي بن سلول مع ثلاث مئةٍ من أصحابه ، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال ، والرغبة في الجنوح إلى السلامة والأمن . وعن تخاذل أولئك الآخرين الذين استعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف ، وأعرضوا عن نداء رسول الله ﷺ بالخروج والقتال ، قائلين : « لاتنفروا في الحر » . بل وعن هزيمة المشركين في غزوة بدر ، على الرغم من ضخامة عددهم وقلة المسلمين ، ووقوع الرعب في أفئدتهم ، وهم هم العرب الذين نشؤوا في ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها .

من الصعوبة البالغة للمنصف أن يتهرب عما تحكم به البداهة الواضحة ، من أن سرّ هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال ، إنما هو الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلب ، والذي ترتبت عليه محبّة عارمة لرسول الله ﷺ . فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة ، ظهر هذا الإقدام والاستبسال ، وحيثما ضعف الإيمان ، وضعفت المحبة في القلب انقلب الإقدام إحجاماً والاستبسال كسلاً وتقاعساً .

خامساً : إذا تأملت حال رسول الله ﷺ ، وهو ينظم صفوف أصحابه ويرتب أجنحتهم ، ويضع الحامية اللازمة في مؤخرة المسلمين ، ويأمر الرماة أن لا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ ، نقول : إذا تأملت ذلك اتضحت حقيقة بارزة ، ولاحت لك من ورائها ظاهرة هامة أخرى .

أما الحقيقة البارزة ، فهي البراعة العسكرية التي كانت تتصف بها قيادته ﷺ في الحروب ، فقد كان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه ، ولا ريب أن الله تعالى قد جهزه بعبقرية نادرة في هذا المجال . ولكننا نقول : إن هذه العبقرية والبراعة إنما يأتي كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية ، فمركز النبوة والرسالة هو الذي اقتضاه ﷺ أن يكون عبقرياً بارعاً في فنون الحرب وغيرها ، كما اقتضاه أن يكون معصوماً بعيداً عن كل انحراف وزلل . وقد شرحنا هذا في القسم الأول من هذا الكتاب فلا حاجة إلى تكراره .

وأما الظاهرة التي تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة هذه لأصحابه عامة ، وللرماة خاصة فهي ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره ﷺ . فكأن النبي ﷺ قد استشف بفراسة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذي قد حدث فيما بعد ، فراح يؤكد التوصيات والأوامر ، وكأنه في ذلك يُجري مع أصحابه مناورة حية مع عدوّ لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوي عليه من طمع في المال والغنائم ، والمناورة مهما كانت نتيجتها ، تفيد فائدة عظيمة .. وربما كانت النتيجة السلبية أدعى للاستفادة من النتيجة الإيجابية .

سادساً : أبو دجانة ، الذي تناول السيف من يد رسول الله ﷺ بحقه ، أخذه وراح يتبختر بين الصفوف ، فما أنكر عليه رسول الله ، وإنما قال : « إن هذه مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع ! » . وهذا يدل على أن كل مظاهر الكبر المحرمة في الأحوال العامة ، تزول حرمتها في حالات الحرب . فمن مظاهر الكبر المحرمة أن يسير المسلم في الأرض مرحاً متبختراً ، ولكن ذلك في ميدان القتال أمر حسن وليس بمكروه . ومن مظاهر الكبر المحرمة تزيين البيوت أو الأواني والأقداح بالذهب أو الفضة . غير أن تزيين آلات الحرب وأسلحتها بالفضة غير ممنوع . فمظهر الكبر هنا إنما هو في حقيقته افتخار بعزة الإسلام على أعدائه . ثم هو معنى من معاني الحرب النفسية التي ينبغي أن لا تفوت المسلمين أهميتها .

سابعاً : إذا تأملنا مدة الحرب التي استمرت بين المسلمين وأعدائهم في هذه الغزوة وجدناها تنقسم إلى شطرين :

الشطر الأول : وفيه التزم المسلمون أماكنهم وأوامرهم التي كانوا قد تلقوها من قائدهم عليه الصلاة والسلام ، فما الذي كان من ثمرة ذلك ؟ لقد سارع النصر إلى المسلمين ، وسارعت الهزيمة إلى صفوف المشركين ، وما هو إلا أن اكتسح الرعب أفئدة الآلاف الثلاثة فانحسروا عن أماكنهم وأخذوا يولون الأدبار ، وهذا الشطر هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران ١٥٢/٣] .

الشطر الثاني : وفيه أخذ المسلمون ينطلقون خلف المشركين ليجهزوا على من يدركونه منهم ، وليأخذوا الغنائم والأسلاب ، وحينئذ نظر الرماة من فوق الجبل الذي كانوا يتمركزون فيه ، إلى إخوانهم وهم يضعون السيوف في أعدائهم اللائذين بالفرار ويعودون بالأموال والغنائم ، فرغب بعضهم أن يشتركوا معهم في الغنيمة ، وخيلت إليهم هذه الرغبة أنّ الفترة الزمنية للأوامر التي تلقوها من رسول الله ﷺ قد انتهت ، فهم في حلّ منها وهم في غنى عن انتظار إذن رسول الله ﷺ لهم بمغادرة أماكنهم وهو اجتهاد خالفهم فيه بعض زملائهم وفي مقدمتهم أميرهم عبد الله بن جبير ، ولكنّ أصحاب هذا الاجتهاد نزلوا وانطلقوا يشاركون في أخذ الغنائم . فما الذي كان من نتيجة ذلك ؟

لقد كان أن انقلب الرعب الذي داهم أفئدة المشركين إلى استبسال جديد ! .. وكان أن تفتحت أسباب الحيلة والمكر لدى خالد بن الوليد الذي كان يولي هارباً ، فنظر حوله متأملاً ، فوجد الجبل المحصّن قد خلا من حماته وحراسه ، فلمعت الفكرة العسكرية في رأسه ، وما هو إلا أن استدار إلى الجبل مع من معه من المشركين ، فقتلوا من بقي ممن لم ينزل وأوجعوا المسلمين رمياً بالسهام من خلفهم .. وجاء الرعب هذه المرة ليغزو أفئدة المسلمين كما رأينا . وهذا الشطر من المعركة هو الذي علقت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ حتّى إذا فَشِلْتُمْ وتنازعتُمْ في الأمرِ ، وعَصَيْتُمْ مِن بعدِ ما أراكُمْ ما تحبونَ ، منكُمْ مَنْ يريدُ الدنيا ومنكُمْ من يريدُ الآخرةَ ، ثمّ صرفَكُمْ عنهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران ١٥٢/٣] .

وانظر ! .. كم كان وبال هذه الخطيئة جسيماً ، وكم كانت نتيجتها عامة ! ..

لقد عادت خطيئـة أفراد قليلين في جيش المسلمين ، بـالوبـال عليهم جميعـاً ، بحيث لم ينـج حتى رسـول الله ﷺ ، من نتـائجهـا ، وتلـك هي سنـة الله في الكـون ، لم يمنعهـا من الاستمرار أن رسول الله ﷺ موجود في ذلك الجيش ، وأنه أحب الخلق إلى ربه جلَّ جلاله .

فتـأمل أنت في نسبـة خطيئـة أولئـك الأفراد ، إلى أخطـاء المسلمين المتنـوعـة اليـوم ، والمتعلقة بشتى نواحي حياتنا العامة والخاصة . تأمل هذا لتتصور مدى لطف الله بالمسلمين إذ لا يهلكهم بمـا تكسب أيـديهم ، وبتقـاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والاجتماع في كلمة واحدة على ذلك .

وإذا تـأملت في هــذا ، علمت الجـواب عن سـؤال بعضهم اليـوم ، عن الحكمـة من أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها ، أمام الدول الباغيـة الأخرى ، على الرغم من أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون .

ثامناً : لقد رأينا أن النبي ﷺ أوذي كثيراً في هذه الفترة ، فوقع لشقه ، وشجَّ رأسه ، وكُسرت رباعيته ، وساح الدم غزيراً في وجهه ، وكل ذلك جزء من نتائج تلك الخطيئـة .. خطيئة أولئك المسلمين في الخروج على أوامر القائد . ولكن مـاالحكمـة في أن يشيع خبر مقتل رسول الله ﷺ في صفوف المسلمين ؟!..

والجواب : أن ارتبـاط المسلمين برسـول الله ﷺ ووجـوده فيما بينهم كان لـه من القـوة بحيث لم يكونوا يتصورون فراقه ولم يكونوا يتخيلون قدرة لهم على التماسك من بعـده ، فكان أمر وفاة رسول الله ﷺ شيئاً لا يخطر لهم في بـال ، وكأنهم كانوا يُسقطون حسـاب ذلـك من أذهانهم ، ولا ريب أنهم لو استيقظوا من غفلتهم هذه على خبر وفاته الحقيقية ، لصـدّع الخبر أفئدتهم ، ولزعزع كيانهم الإيماني بل لقوّضه في نفوس كثير منهم .

فكان من الحكمة الباهرة أن تشيع هـذه الشـائعـة ، تجربـة درسيّـة بين تلـك الـدروس العسكريـة العظيمـة ، كي يستفيق المسلمـون من ورائهـا إلى الحقيقـة التي ينبغي أن يـوطنـوا أنفسهم لها منذ الساعة ، وأن لا يرتدوا على أعقابهم إذا وجـدوا أن رسول الله ﷺ قـد اختفى مما بينهم .

ومن أجل بيان هذا الدرس الجليل نزلت الآية تعليقاً على ماأصـاب كثيراً من المسلمين

من ضعف وتراجع لدى سماعهم نبأ مقتل رسول الله ﷺ ، وذلك إذ يقول الله تعالى :

﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ ، قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انقلبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ؟ ومن يَنْقَلِبْ على عقبَيْهِ فَلَنْ يضرَّ اللهَ شيئاً ، وسيَجزي اللهُ الشاكرينَ ﴾ [آل عمران ١٤٤/٣] .

ولقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس ، يوم أن لحق رسول الله ﷺ فعلاً بالرفيق الأعلى ، فقد كانت شائعة أحُد هذه ، مع مانزل بسببها من القرآن ، هي التي أيقظت المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة ، فودعوا رسول الله ﷺ بقلوبهم الحزينة ، ثم رجعوا إلى الأمانة التي تركها بين أيديهم ، أمانة الدعوة والجهاد في سبيل الله ، فنهضوا بها أقوياء بإيمانهم أشداء في عقيدتهم وتوكلهم على الله تعالى .

تاسعاً : ولنتأمل في وقع الموت على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهم من حوله يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم ، يتساقطون الواحد منهم إثر الآخر تحت وابل السهام ، وهم في نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة رسول الله ﷺ ، لا يبالون بغير ذلك ! .. فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة ؟ .

إنه الإيمان بالله ورسوله أولاً ، ثم محبة رسول الله ﷺ ثانياً ، فهما معاً سبب هذه التضحية الرائعة العجيبة . والمسلم يحتاج إليهما معاً ، لا يكفيه أن يدّعي الإيمان بما ينبغي الإيمان به من أمور العقيدة ، حتى يمتلئ قلبه بمحبة الله ورسوله أيضاً ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٣١] .

وبيان ذلك أن الله عز وجل قد غرس في الإنسان عقلاً وقلباً . أما الأول فلكي يفكر به فيؤمن بما يجب الإيمان به . وأما الثاني فلكي يستعمله في محبة من أمر الله بمحبته وبغض من أمر ببغضه . وإذا لم يشغل القلب بمحبة الله ورسوله والصالحين من عباده ، فسيمتلئ ولا بد بمحبة الشهوات والأهواء والمحرمات . وإذا فاض القلب بمحبة الشهوات والأهواء فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملاً لصاحبه على أي عمل من أعمال التضحية أو الفداء .

---

(٣١) متفق عليه .

وهـذه الحقيقـة من الأوليّـات التي أقرهـا علمـاء التربيـة ، والأخـلاق ، ودلت عليهـا التجارب البدهية ، واسمع ما يقوله في ذلك جان جاك روسو في كتابه (اميل) :

« كم قيل وأعيد القول عن الرغبة في إقـامـة الفضيلـة على العقل وحـده ، ويـا لـه من أسـاس متين ! .. أي أسـاس هـذا ؟! .. إن الفضيلـة كما يقـولـون هي النظـام ، ولكن هـل يستطيع الإيمان بالنظام أن يتغلب على مسرتي الخاصـة ؟ .. إن هـذا المبـدأ المزعوم ليس إلا لعباً بالألفاظ فالرذيلة هي حب النظام بشكل مختلف »(٣٢) .

من أجل هذه الحقيقة لم تستطع الحكومة الأمريكيـة أن تلتزم بمـا آمنت بـه واعتقـدت بفـائـدتـه يوم أقـدمت على تحريم الخمر ومنع مـداولتهـا في المجتمعـات والنوادي ، وذلـك عـام ١٩٣٣ م ، إذ لم تمض سوى فترة وجيزة حتى نكص المقننون على أعقابهم ، وارتـدّوا مترنحين من ألم الحرمان فألغوا القانون الذي التزموه وراحوا يَعُبُّون أقداحهم من جديد ..

هذا على حين أن أصحاب رسول الله ﷺ - وهم من هم من الثقـافـة والمـدنيـة ومعرفـة الأضرار والفوائـد بـالنسبـة للأمريكيين اليوم - عمـدوا بمجرد أن سمعوا أمر الله عـز وجـل لهم باجتناب الخمر ، إلى دنان الخمر فأراقوها وإلى الأقـداح فكسروهـا ، وارتفعت أصواتهم تقول : « انتهينا يا رب انتهينا ! » :..

والفرق بين الصورتين والواقعتين ، أن ههنـا شيئـاً قـد وقر في القلب فكان هـواه تبعـاً لأمر الله وأحكامه .

هـذه المحبـة ، بل هـذا الهوى المستحوذ على قلوب أصحـاب رسول الله ﷺ هـو الـذي جعلهم يمدون نحورهم دون نحر رسول الله ويعانقون الموت في سبيل حفظ حياته عليه الصلاة والسلام . وكم في غزوة أحد من المشاهد الرائعة التي تكشف عن أثر هـذه المحبـة إذ تغمر قلب صاحبها .

روى ابن هشام أن النبي ﷺ قال لأصحـابـه : « من رجل ينظر لي مـا فعل سعـد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لـك يـا رسول الله ما فعل سعد . فنظر ، فـإذا هو جريح في القتلى وبـه رمق . فقـال لـه : إن رسول الله ﷺ

(٣٢) راجع التوسع في هذا البحث كتابنا : تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث .

أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ! .. قال : أنـا في الأموات ، فـأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير مـاجزى نبيـاً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عنـد الله إن خلُص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف . قال الأنصاري : فلم أبرح حتى مات » .

ويوم تمتلئ أفئدة المسلمين في عصرنا هذا بنحوٍ من هذه المحبة ، بحيث تبعـدهم قليلاً عن شهواتهم وأنانيتهم ، وتتغلب عليها ، أقول : يوم يحدث هذا في أفئدة المسلمين فـإنهم يصبحون خلقاً آخر جديداً ، وسينتزعون انتصارهم من بين شدقي الموت وسيتغلبون على أعـدائهم ، مهما كانت العقبات والسدود .

وإذا سألت عن السبيل إلى مثل هذه المحبـة ، فـاعلم أنهـا في كثرة الـذكر وكثرة الصلاة على رسـول الله ﷺ ، وفي كثرة التـأمـل والتفكر في آلاء الله ونعمـه عليـك ، وفي سيرة رسـول الله ﷺ وأخـلاقـه وشمائلـه ، وهـذا كلـه بعـد الاستقـامـة على العبـادات في خشيـة وحضور ، والتبتل إلى الله عز وجل بين الحين والآخر .

عاشراً : وقد رأينا فيما يرويه البخاري رضي الله عنـه ، أن النبي ﷺ أمر بـدفن قتلى المسلمين بدمـائهم ولم يصلّ عليهم ، وجمع بين الرجلين في قبر واحـد ، وقـد استـدل من ذلـك العلماء على أن الشهيد في معركة الجهاد لا يغسل ولا يصلى عليه ، بل يدفن بـدمـائـه . قـال الشـافعي رضي الله عنـه : جـاءت الأحـاديث من وجوه متواترة أنـه لم يصـل عليهم ، وأمـا مـاروي أنـه ﷺ ، صلى عليهم عشرة عشرة ، وفي كل عشرة حمـزة ، حتى صلى عليـه سبعين مرة فضعيف وخطأ[٣٣] . كما استدلوا بذلـك أيضـاً على أنـه يجوز عنـد الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر ، أما بدون ضرورة فلا يجوز .

حادي عشر : وإذا تأملنا فيما أقـدم عليـه رسول الله ﷺ مع أصحـابـه فور عودتهم إلى المدينة من الخروج ثانية للحاق بالمشركين ، اتضح لنـا درس معركـة أحـد اتضـاحـاً كاملاً ، وتبين لنا كل من نتيجتيها : السلبية والإيجابية ، وظهر لنا بما لا يـدع مجـالاً للتوهم أن النصر إنما يكون مع الصبر وإطاعة أوامر القائد الصالح واستهداف القصد الديني المجرد .

---

(٣٣) راجع مغني المحتاج : ٣٤٩/١

فقد رأينا أن النبي ﷺ لم يكد يؤذّن في الناس للخروج مرة أخرى لطلب العدوّ ، حتى تجمع أولئك الذين كانوا معه بالأمس ، من بعد ما أصابهم القرح وأنهكتهم الجروح والآلام ، ولم يسترح أحد منهم بعد في بيته أو يفرغ للنظر في حاله وجسمه ، وانطلقوا خلف رسول الله ﷺ يبتغون المشركين الذين لم تخمد بعد في رؤوسهم جذوة النشوة بالنصر . ولم يكن فيهم هذه المرة من يطمع في غنيمة أو غرض دنيوي ، وإنما هو التطلع إلى النصر أو الاستشهاد في سبيل الله ، وهم يسوقون بين يدي ذلك جراحاتهم الدامية ، وقروحهم المؤلمة .

فما الذي كان من نتيجة ذلك ؟

لا نشوة الظفر أو لذة الانتصار ربطت على قلوب المشركين ليتموا نصرهم والتغلب على خصومهم ، ولا وقع الهزيمة وآلام الجروح الكثيفة في المسلمين حال شيء من ذلك دون إقدامهم وانتصارهم .

وكيف كان السبيل ؟ .. لقد كان السبيل إلى ذلك آية إلهية خارقة لتتم الدرس والموعظة للمسلمين ، وقع الرعب فجأة في قلوب المشركين وتصوروا كما أخبرهم صاحبهم الذي كان قد لمح المسلمين عن بعد ، أن محمداً ﷺ وصحبه قد جاؤوا هذه المرة ومعهم الموت المؤكد لينثروه فيما بينهم ، فارتدوا على أعقابهم بعد أن كانوا متجهين صوب المدينة ، وانطلقوا سراعاً إلى مكة لا يلوون على شيء ! ..

أما كيف داخلهم هذا الرعب الغريب من المسلمين ، وهم الذين كسروا شوكتهم ووضعوا السيف فيهم قبل ساعات فقط من الزمن ، فمردّ ذلك إلى الإرادة الإلهية التي جعلت من هذه الموقعة كلها درساً بليغاً للمسلمين ، جمع بين كلا مظهريه الإيجابي والسلبي في آن واحد .

وفي هذا الختام الأخير المتمم لموعظة أحد نزل قوله تعالى :

﴿ الذينَ استجابوا للهِ والرسولِ مِنْ بَعْدِ ما أصابَهُمُ القرْحُ ، للذينَ أحْسَنوا مِنْهُمْ واتَّقَوا أجْرٌ عظيمٌ ، الذينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنّ النّاسَ قَدْ جَمَعوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزادَهُمْ إيماناً وقالوا : حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ فانْقَلَبوا بنعمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سوءٌ واتّبَعوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ ﴾ [آل عمران ٣/١٧٢-١٧٤] .